شيخوخة معرفية متزامنة في ظل بيئات سياسية غير متكافئة: دراسة في النقل العام الحضري

تأليف

مدرس الدكتور محمد لوتي

فبراير 14, 2026

اقتبس من هذا المقال

مدرس الدكتور محمد لوتي (2026). شيخوخة معرفية متزامنة في ظل بيئات سياسية غير متكافئة: دراسة في النقل العام الحضري. عرب سايكلوجي. تم الاسترجاع من https://arabpsychology.com/?p=118892

ARABPSYCHOLOGY.COM

تخيل أنك في الثمانينيات من عمرك، تعتمد على الحافلات ووسائل النقل العام الأخرى للتنقل في مدينتك. فجأة، يضرب العالم جائحة، وتتغير الأمور بشكل جذري. مسارات الحافلات تتغير، الخدمات تنخفض، والمساحات العامة التي كنت تعتاد عليها تصبح مهجورة. كيف يؤثر هذا التغيير المفاجئ على قدرتك على التفكير، على ذاكرتك، وعلى شعورك العام بالاستقلالية؟ هذا هو السؤال الذي بدأ الباحثون في استكشافه بعمق، مع التركيز على العلاقة المعقدة بين البيئة الاجتماعية والسياسية، والشيخوخة المعرفية (cognitive ageing).

منهجية البحث

قام الباحث جيه. آر. فليتشر بإجراء دراسة إثنوغرافية إبداعية (creative ethnography) مع كبار السن الذين يستخدمون وسائل النقل العام ويعانون من تدهور إدراكي. بعيدًا عن الاستبيانات التقليدية، اعتمد فليتشر على أساليب متعددة الوسائط ورسم الخرائط لفهم كيف يصف هؤلاء الركاب تجاربهم. لم تكن الدراسة مجرد جمع بيانات، بل كانت محاولة لفهم كيف يتفاعل كبار السن مع بيئتهم وكيف تشكل هذه التفاعلات عملية الشيخوخة المعرفية لديهم. ركزت الدراسة بشكل خاص على تأثير جائحة كوفيد-19، التي أحدثت تحولات كبيرة في حياة المشاركين، سواء على المستوى الشخصي (مثل العزلة) أو على مستوى البنية التحتية (مثل تدهور الخدمات). الهدف لم يكن تحديد أسباب بسيطة للتدهور المعرفي، بل استكشاف "التشابكات البيئية" (ecological entanglements) المعقدة التي تؤثر على هذه العملية. بعبارة أخرى، كيف تتشابك العوامل الاجتماعية والسياسية والمادية لتشكيل الطريقة التي نتقدم بها في العمر من الناحية المعرفية.

النتائج

أظهرت نتائج البحث أن جائحة كوفيد-19 لم تكن مجرد أزمة صحية، بل كانت بمثابة "إزالة للشرطية البيئية" (ecological deconditioning). على المستوى الشخصي، أدت العزلة الاجتماعية إلى تدهور الصحة العقلية والجسدية لكبار السن، مما أثر سلبًا على قدراتهم المعرفية. في الوقت نفسه، أدى انخفاض الخدمات وتدهور المساحات العامة إلى تفاقم هذه المشكلة. لاحظ الباحث أن هذه التغيرات لم تؤثر على الجميع بالتساوي، بل تبعت أنماطًا من التفاوتات الإقليمية والطبقية. بمعنى آخر، كان كبار السن الذين يعيشون في مناطق محرومة أو ذوي الدخل المنخفض أكثر عرضة للتأثر سلبًا بهذه التغيرات. لم تكن هذه التغيرات مجرد "عوامل خطر" إضافية، بل كانت جزءًا لا يتجزأ من عملية الشيخوخة المعرفية نفسها. فقد أظهرت الدراسة أن البيئة المحيطة لا تؤثر فقط على كيفية تقدمنا في العمر، بل تشارك أيضًا في "تكوين" هذه العملية. وهذا يعني أن التدهور المعرفي ليس مجرد نتيجة حتمية للتقدم في العمر، بل هو نتاج تفاعل معقد بين العوامل البيولوجية والاجتماعية والبيئية.

دلالات البحث

تضع هذه الدراسة الشيخوخة المعرفية في سياق أوسع بكثير من مجرد الصحة الفردية. إنها تشير إلى أننا بحاجة إلى التفكير في الشيخوخة المعرفية على أنها "مشكلة شاملة" (everything problem)، تتطلب جهودًا متعددة الأوجه لمعالجة العوامل الاجتماعية والسياسية والبيئية التي تؤثر عليها. بعيدًا عن التركيز فقط على "تحسين" نمط الحياة في منتصف العمر (وهو نهج شائع في الأبحاث الحالية)، تدعو هذه الدراسة إلى إنشاء "بيئات مُحسّنة إدراكيًا" (cognition-optimising ecologies) تعزز الصحة المعرفية للجميع، وخاصة أولئك الأكثر عرضة للخطر. هذا يتطلب ليس فقط تحسين الخدمات الصحية، بل أيضًا معالجة التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية، والاستثمار في المساحات العامة، وضمان حصول كبار السن على الدعم الذي يحتاجونه للبقاء نشطين ومشاركين في المجتمع. تتميز هذه الدراسة بتقديمها "طريقًا ثالثًا" (comprehensive connective route) لتحليل الشيخوخة المعرفية، يجمع بين الدراسات الوبائية (التي تركز على الاتجاهات

ARABPSYCHOLOGY.COM

السكانية) والجهود الفردية لتحسين الصحة (مثل التمارين الرياضية والتغذية السليمة). إنها تؤكد على أهمية فهم التاريخ الاجتماعي والسياسي الذي يشكل حياتنا، وكيف يمكن لهذه العوامل أن تؤثر على قدراتنا المعرفية في المستقبل. إنها دعوة للعمل من أجل مجتمع أكثر عدلاً وإنصافًا، حيث يتمتع الجميع بفرصة للشيخوخة بشكل صحي ومستقل.

Reference

Fletcher, J.R. (2026). *Cognitive co-ageing with inequitable political ecologies: Deconditioning & urban public transport*. Social Science and Medicine.

DOI: 10.1016/j.socscimed.2025.118727

ARABPSYCHOLOGY.COM